باب التربية والتعليم

للمدرزة الناسمة صهه هبريدة الدكتور ابراهيم (١)

﴿ تعليم الاطفال اليونانية واللاتينية واقرانهم كتبهما ﴾

تناظرت مع هيلانة غير مرة في ضرورة تعليم « اميل » تينك اللغتين واقرائه ما ألف فيهما من الكتب وانت ذاكر لك من هذه المناظرات الا ملخصها فاقول :

الواجب أن يربى كل طفل تربية من يتجهي ان يكون من كبار الرجال فذلك هو الوسيلة التي يفضل بها عامة الناس ويمتاز عنهم في مستقبله ولهذا كان حقاً على المربي ان يعرف طبعه ويحث في ضروب ميله ويختبر أنواع استعداده العقلي . ولما كان الميل والامتياز يحصلان في هذه الدنيا بكيفيات مختلفة وينالان بطرق شتى كان أول فرض عليه ان يحث في هذه الطرق عما يلائم طبعه ويناسب استعداده

فالذي أعيبه في طريقة المربين عندنا هو إغفال ما للناشئين من القوى وضروب الاستعداد الذهنية وعدم امتيازها في شيء من التربية . ذلك انك ترى بعض الناشئين مثلاً قد ولد رحالة ليضرب في الارض ويجوب آفاقها وأخص حاجة له فيما خلق لأجله هي معرفة اللغات حتى يتفاهم بها مع الأجانب في بلادهم فيبدأ المربون بتعليمه لغتين مهمتين لتقطع التخاطب بهما من على وجه الأرض . وترى آخر خلق ميالاً الى معرفة علم القوى المحركة وقوانين التوازن (الميخانيقا) يلقون به في بحر من الكتب ما له من قرار وتجده ثانياً أعد للتجارة ورابعاً سخر للزراعة لا يراعى ما لكل منهما من الميل الى ما أعد له ان يتبع في حقهما ما قضت به العادة وجرى عليه العرف وهو انه لا بد من بلوغ الاسكندر بالغير في هذه الدنيا من سجنه في المدرسة ثمان سنين . ثم ينتقل من مدارس اللاتينية واليونانية من يقضي عمرهم بأن لا يستعملوهما في حياتهم لانهم متى خرجوا من المدارس اشتغلوا بمصالحهم قل والله الحق ان يخطر ببالهم تصفح كتاب فرجيل (١) أو ديوان عمير (٢) والنظر في صحفهما البالية التي قضوا في معالجتها كثيراً من ساعات النصب والسآمة ولست أقصد بقولي هذا تجريد أي معرفة من

(١) معرب من باب تربية اليافع من كتاب اميل القرن التاسع عشر

معارف العقل كائنة ما كانت من الفائدة مطلقاً ولكن لا حرج علي ان ارتبت في ان ما يخسره كثير من التلامذة من زمنهم في تعلم تينك اللغتين لا يساويه ما يعود عليهم من الفوائد بتعلمهما

أنا اعلم كل ما للمنتصر لهما من وجوه الاحتجاج على ضرورة تعليمهما فله ان يقول ان معرفتهما حاسة سادسة لنا ندرك بواسطتها دقائق آداب اللغتين وانه لا يسع احد من الناس إنكار ما كان لمطالعة الكتب القديمة المؤلفة بهما من التأثير الماثل في عقول الناشئين الذين نفذوا بابهان معارف الاقدمين حق النفذية ان مطالعة هذه الكتب تخلصنا من شواغل وقتنا المادية وتعارض عصرنا الذي سرت فيه النفس وتحب درجات التفاضل بينهم واشتغل اهله بالحقائق الثابتة دون غيرها كصور الاشخاص وما شاكلها واقاد من مخترعات الخيال وتستر مواضع الضعف فينا بحجاب الجمال الظاهر بدون ان تغير من طبيعتنا شيئاً. ثم ان بُعد اهل تلك العصور عنا وبيانهم لنا في الاخلاق والعوائد مما يساعدنا ايضاً على ان نبصر من خلال كتبهم الشعرية سراء منتهى الكمال المطلق

وفوق ذلك فان هذه الكتب حافلة بالاناشيد الوطنية التي كان من آثارها ما ظهر في عهد الجمهورية الجميل من احتقار الملوك وجر ذيل الخيلاء عليهم فلقد كانت نسمة هبت من رومة او من أثينا في إثارة بغض السلطان المطلق قلوبنا في القرن الثامن عشر فان حكماء هذا القرن وزعماء الفتنة الفرنسية فيه قد استمدوا مما دعوه من الكتب المدرسية اصلح الصور لإيقاظ العقول وبث روح الحياة السياسية في النفوس وكان لخيالات الثائرين في ذلك الجهاد الذي قام في سبيل الحق من البلاء ما كان للاحياء انفسهم فلا نقل لابي غراتوس (٣) وبرنوس (٤) وبمناول اوتيفانيه قد ماتوا بل هم احياء يمينوننا على كفاحنا ويعاضدوننا في جهادنا ويسهمونا من اصواتهم ويشهدوننا من اساهم مايقوي عزيمتنا على السعي وراء الحرية التي هي غاية النفوس الابية

لا أنازع في ان معرفة اليونانية واللاتينية قد تكون من الرياضات النفسية المفيدة

---

(١) فرجيل هو شاعر لاتيني شهير ولد سنة ٧٠ ومات سنة ١٩ قبل المسيح

(٢) هومير هو الشعر الشعراء اليونان الاقدمين لا نعلم مكان ولادته ولا تاريخها كذا كتب العرب والمعربون يسمونه يعربون « هومروس » ويكتب بالقلم الافرنجي هكذا Homeros ٤٣٠ غراتوس حاكم رومائي اشتهر في اسبانيا ورزق بولدين سميا بالغراقيين وكانا من قضاة الشعب ٤٥٠ برنوس أحد قتلة القيصر الروماني

ولكني أقول إن لرياضة النفس وتربية العقل طرقاً شتى وإن من الظلم الفاحش قصر معنى التعليم على فرع واحد من العلوم فقد يكون الانسان عالماً يشار اليه بالبنان وخطيباً باهر البيان وسياسياً حصيف الجنان (وفي أمريكا ما يشهد لصحة ذلك) وهو لم يقرأ في حياته كتب أرسطو «١» ولا ديموستين «٢» ولا شيشيرون «٣» باللغة التي ألفت بها . ذلك ان مراقبته بنفسه الامور ومعاملته للناس واختلاطه بهم ودراسته لآداب لغته واستعداده الفطري كثيراً ما تغنيه عن الزخارف المدرسية فرأيي هو ان الاحوال التي تختص بالطفل وما يكون فيه من القوى والملكات الذاتية هي الواجب التعويل عليها في تحديد الطريقة التي ينبغي سلوكها في تربيته فان طرق التعليم انما أوجدت للاحداث ولم توجد الاحداث لها

لما أعلم حق العلم ضروب استعداد «اميل» ولا حالة عقله حتى أحكم على اليق أنواع التعليم به وأشدها ملاءمة لطبعه والذي أتمناه له هو ان لا يكون بعيداً عن العلوم ولا عن آداب اللغة ولست أرى من وجوه الاعتراض على الجمع بين هذين النوعين من المعارف سوى ما تقتضيه تعلم اليونانية واللاتينية من الزمن فان انفاق سبع سنين أو ثمان من العمر في تحصيل لغتين مهملتين تحصيلا في غاية النقص غالباً هو اسراف كبير في عصر لا يحصل الانسان فيه متوسط المعارف الضرورية إلا بانفاق معظم حياته وانني باحث الآن فيما اذا كانت اضاعة ذلك الزمن الطويل في تحصيلهما لازمة لطبيعة الصعوبات التي يصادفها المتعلم فيه أو انها ليست من لوازمها وان من الميسور التغيير فيها والتقليل منها

أول سبب فيما أرى لطول مدة تعلم هاتين اللغتين هو إفراط المعلمين في تعجيل تعليمهما للأطفال لانهم يبدأونهم به قبل ان يكونوا تعلموا أو راقبوا شيئاً بأنفسهم فتراهم لجهلهم كيفية صوغ الالفاظ وتركيب الاساليب التي هي قوالب المعاني لا يكادون يتمتمون بلغتهم نفسها مضبوطة ولحبسهم بين جدران المدرسة من نعومة أظفارهم اعتادوا اعتبارها سجناً تتعاقب عليه الاجيال الناشئة تكفيراً لسيئة جهل آبائهم الاولين فهم

واما قانون اتيقا فهو حفيد قانون القديم وهو ضابط روماني شهير كان من حزب بومباي وبعد ان شهد معه واقعة فرسالا انطلق الى أفريقا وقتل نفسه «١» أرسطو حكيم يوناني مشهور «٢» ديموستين أشهر خطيب يوناني أثار مقدونيا على فليبوس وألب أثينا على الاسكندر «٣» شيسرون أشهر خطيب روماني

لا يعرفون شيئاً من الكون وقد حالت المدرسة بينهم وبين المحابر اليتية والجوادب الاهلية وهي التي كانت تحبب العمل اليهم وتشعر قلوبهم قدره فأصبحوا لا تصلهم حرارتها الا من بعيد جداً ففي أول عمل لهم يمرنون به قواهم الناشئة تفاجئهم الفاظ وحشية وصيغ نحوية وتراكيب مجهولة فيتصيدون اتفاقاً بأيديهم العسراء من محابرهم الكدراء ضروباً من مخالفة القياس وأنواعاً من ضعف التأليف تجري بها اقلامهم ، ولا تدركها افهامهم ، فرُبَّ هي لهم من حيارى ذاهلين لا ينفعهم تعاقب التمارين ولا تتابع الامثال فليس تكرار الاغلاط والخطئات الواحدة في تعلم لغة مجهولة هو الوسيلة إلى إصلاحها

انا أحب ان يرى ولدي قبل تعلم اللاتينية شيئاً من العالم وان يتفتق ذهنه باحتكاكه بالصناعة ودراسته تاريخ الموجودات فان كل واقعة روقبت تولد في نفس مراقبها لذة وتنمي فيه الحاجة الى المعرفة فاذا حصل له بكسبه بعض معان بينة صار بهذه الواسطة أحسن استعداداً لفهم ما يتلقاه عن غيره من المعاني ولو ظهرت في صيغ مبهمة من الالفاظ

ثم ان من اسباب طول المدة التي تقضى في تعلم اليونانية واللاتينية على ما أرى ان المربين يعلمونهما للاطفال قبل ان يطلعوهم على شيء من احوال الرومان واليونان والانسان لا يحسن تعلم لغة قوم الا في بلادهم ومن أجل ذلك سأهتم عند تعليمهما «أميل» بان اجعل له من آثار اهلهما بلاداً يتعلمهما فيها. وفي هذا المقام تظهر فائدة انشاء معاهد التعليم التي من قبيل القصر الملوري ثم اني على يقين من ان مشاهدة ما يكون في مثل هذه المعاهد من التماثيل والصور ومثل المعابد والمباني الاثرية العامة لا تعين التلميذ على فهم شعر عمير وفرجيل ولكن اليونانية واللاتينية اذا اقترن تعليمهما بتعليم تاريخ قوميهما وما يشهد لهم من دلائل القدم القديم لا تبقيان لغتين مندثرتين اندثاراً تاماً كما لو علمتا مجردتين

ذلك ان لفنون الرسم من التأثير في نفوس الناشئين ما هو فوق المظنون بها كثيراً بسبب اجتلائها العقل في آثار الماهرين وسموها بالنفس في اعمال الماضين ولان سن الايفاع هو السن الذي يسهل فيه الدماغ الرافع في شخص غيره لسبب سهل الادراك وهو ان معنى الاستدلال الذي لا يظهر الا قليلا في هذا العضو من الحيوة فيكثر هذا النوع من المعاشرة مع اليونان والرومان فيرتقي من آثارهم يعني التلميذ بل يعلو بأخلاقهم ويخلص [illegible]

في سلامين «١» ويشهد خلف بومباي «٢» واقعة فرسالا . ولا يسبقن الى خاطرك ان هذا لوجود الفكري فيما غبر من الزمن ليس هو إلا وهماً محضاً فانه لا شيء مما كان في الماضي قد مات موتاً تاماً

لم نجد طريقتنا في تعليم اللغتين الاتين نحن بصدد الكلام عنهما نفعاً فانها لا تزال عليها مسحة من تعليم القرون الوسطى وهي التي طبعها عليها القسيسون والرهبان اذ لا تزال العقبات تقوم في سبيل دراسة آثار الاقدمين دراسة صادقة واولها ما للدين المسيحي من الاوهام والوساوس في آلهتهم التي تراه على قهره إياها لا يزال يعتقد انها مضرة حتى في انهزامها امامه فان رجال هذا الدين مع استتارهم على توالي القرون باللغات القديمة واحتكارهم معرفتها كانوا يعنون في تعليمهم بإزهاق ذلك الروح الذي ألهم الصناع ما ظهر على أيديهم من تحف الصنائع وطرفها وكانت فنون الوثنيين وآدابهم لغاتهم من الغنائم التي اهتم أولئك الرجال بحفظها غير انهم كانوا يحترسون كل الاحتراس من اظهار آخر ما اكتشفوه من أسرارها للأحداث وكان من مصلحتهم ان لا يزيلوا عن تلك الاسرار الا طرفاً من حجابها لانه كان لا بد لما يعيه الخلف من آثار السلف ان يردهم يوماً ما الى عبادة الطبيعة وجمالها ومن أجل ذلك كان رؤساء الدين لا يفتأون يذكرون الناشئين بأن آلهة الوثنيين آلهة باطلة لا أصل لها الا الكبرياء والكذب وانه لا ينبغي النظر اليها الا من بعيد مع الاسترشاد في ذلك بهدي الدين المسيحي

أنا لا أحترس كل هذا الاحتراس في تعليم «أميل» تينك اللغتين واقرائه كتبهما لانه لا بد لمن يزاول دراسة أمر من الامور ان يكون له فيه شيء من الاعتقاد فاصرح لو انه أخلص في الاشتغال بهرقل (٤) وأعماله ومن ذا الذي ينقم منه ان قدم فرنانا الالآلهات العفيفة (٥) ولمنروة (٦) الحكيمة الابية فان في كشف حقيقة الاشخاص الخرافيين الذين وجدوا في خيال الاقدمين وكانت حياتهم ملائمة كل الملائمة لخيال

«١» سلامين وتسمى الآن كولوري هي جزيرة في خليج أثينا «٢» بومباي قائد روماني شهير له غزوات كثيرة كان فيها ظافراً «٣» فرسالا مدينة بإقليم تساليا القديمة من بلاد اليونانية هزم فيها قيصر الروماني بومباي (٤) هرقل بطل خرافي مشهور بأعماله العجيبة (٥) الالاهات العفيفة في أساطير اليونان هي الاهات الفنون التسعة بنات المشترى (٦) منروة هي في الاساطير المذكورة الاهة الحكمة والفنون والحرب

اليائسين وازالة الوهم من عقول هؤلاء في شأنهم في ذلك تعجيلاً بزعزعة عقيدتهم في النوع الانساني ، ولا يظن ظان اني أقصد بما أقول ان أوقف « اميل » عند الوثنية فاني انما أريد بهذا القول انه لا بد لمن يريد النفوذ الى أسرار امة قوم من اختلاس آلهتهم . اه

﴿ مقدمة كتاب الاسلام والنصرانية ﴾

« ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »

ظهرت في العالم مَدَنِيَّاتٌ ثم خفيت ، وَدُرِسَتْ فيها العلوم والفنون ثم دَرَسَتْ ، وَصلحت أحوال الأناسي ثم فسدت ، وطلعت فيهم أقمار الهداية الدينية ثم خسفت ، ولم يزل الناس في قيام وقعود ، وهبوط وصعود ، والأمم في تلاش وفناء ، ونشوء وارتقاء ، حتى استعدّ المجموع في جملته للرقي العام ، فمنحه الله تعالى دين الاسلام ،

جاء الاسلام والعالم كله في تأخر من جميع الوجوه — من جهة الدين ، من جهة العلم ، من جهة المدنية ، من جهة السياسة ، فلم يمرّ قرن واحد حتى جدّد للعالم كله ديناً قيّماً ، وعلماً محكماً ، ومدنية سعيدة ، وسياسة رشيدة ، ونشر ذلك كله في مشارق الأرض ومغاربها بقوة الحق ، وسرعة البرق ، فتغير به وجه الأرض ونفخ في الانسان روحاً جديداً أعطاه من جراثيم الحياة ما لا يقبل الفناء ، ما دامت الأرض والسماء . (١)

ينبوع تفجر في أرض وفاض ماؤه على غيرها فأحيا الأرض بعد موتها ولكن القائمين على حراسته وتعاهده وضعوا فوقه أنقاضاً من خرائب جيرانهم فغيض الماء وما بقي منه صار مستنقعات تُجْتَوى ، لم يلبث بعد ما غاض أن فاض منه شيء في

(١) بينا ان اركان الاصلاح الاسلامي غير قابلة للهدم في مقالات متعددة نشرناها في مجلدات المنار كمقالات « الاصلاح الديني » والمقالة التي فاتحها « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ومقالات « سلطة مشيخة الطرق الروحية » وفيها الكلام على تقييد الاسلام السلطتين السياسية والدينية وجعل الناس سواء ، وكل هذا في المجلد الأول ، وكمقالة « الجنسية والديانة الاسلامية » في المجلد الثاني ومقالة « اعادة مجد الاسلام » ومقالات « مدنية العرب » في المجلد الثالث وكمقالات الحكومة الاسلامية والقضاء في الاسلام في المجلد الرابع